

العنقاء

بين فكر العرب .. وفكر الإغريق والرومان

بقلم

الدكتور سيد أحمد علي الناصري

مدرس التاريخ والحضارة

اليونانية الرومانية

بكلية الآداب — جامعة القاهرة

111

1. The first part of the paper is devoted to a general discussion of the problem.

2. The second part is devoted to a detailed study of the case of a single particle.

3. The third part is devoted to a study of the case of a system of particles.

4. The fourth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

5. The fifth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

6. The sixth part is devoted to a study of the case of a system of particles.

لا يعرف العالم موضوعاً شغل خيال العديد من شعوبه مثل العنقاء ، ذلك الطائر الخرافي الذي تناوله كل شعب بالخيال والتعبير — طريقة يمكن أن تفيد في التعرف على قساي هذه الشعوب وعلى عقلايتها المتميزة إذا ما درسناها بالتجليل ، أنها فرصة نادرة أمام الدارسين أن يجدوا موضوعاً خيالياً واحداً تناوله شعوب مختلفة العنصر والفكر والحضارة ويفصل بينها عصور وأزمنة مختلفة .

كان المصريون أول من صاغ الأسطورة فكراً وصورة كما سنرى فيما بعد ، إذ عرفوا العنقاء باسم « بنو » Bnu ويرجع العالم الكبير الدكتور أحمد بدى أن هذا الاسم مشتق من الفعل المصرى القديم Wbn أى يشرق أو يرق أو يتوهج ويكون معنى الاسم إذا البراق أو الوهاج ، ومن هنا جاءت الصلة بين إسم الطائر وبين الحجر المرمى المعروف باسم بن بن bn bn والذي رمز به المصريون إلى التل العتيق الذى برز منه الماء الأزلى (الثون) أى إلى الأرض التى طفت على وجه الماء — فإذا هذا الطائر يتألاً من توقها فيملاً السكون نوره ويخرج صوته فيكون بذلك أول دوى فى الوجود (١) .

هذا كل ما تقدمه لنا المصادر المصرية عن العنقاء بالرغم من أن أسطورة العنقاء كانت شائعة ومعروفة خاصة عند كهنة معبد الشمس فى هليوبوليس Helopolis (الطورية) وإذا تكايت أسطورة العنقاء شائعة فى مصر فلا بد أنها شاعت أيضاً فى فلسطين

(١) أحمد جوى وأحمد طاهر نقابة : هيرودوت على مفكر تاريخهم الإجماع ١٩٦٦م ١٩٨٨م .

خاصة عند المبرانيين القدماء لأن فكرهم تأثر كثيراً بالفكر المصرى القديم خاصة في مجال الأساطير الدينية والأدب ولهذا السبب يميل فريق كبير من دارسى نصوص التوراه إلى الاعتقاد بأن مؤلف أناشيد أيوب كان على دراية بقصة العنقاء خاصة في الفقرة الثامنة عشرة من الأنشودة التاسعة والمشرنين ولذا ترجمت إلى العربية على النحو التالى :

« فقلت أنى في وكرى أسلم الروح والسمندل (١) أكثر إجماء » .

و يستشهد هؤلاء المفسرون المحدثون على هذه الترجمة بأن المؤلف ذكر في البيت نفسه كلمة وكر أو عش لأن الأساطير القديمة كانت تربط بشدة بين العنقاء وعشه الخرافى الذى كان يبنيه من أعشاب منتقاء كذلك فإن أيوب كان يريد أن يحياه ولا يوجد في الوجود شيء جاور العنقاء عمراً حتى صار مضرب الأمثال (٢) في العالم القديم .

ومها كان الأمر فإن اللفظ الذى ورد في النص العبرى هو حول أو خول أى أن المبرانيين عرفوا العنقاء بهذا الاسم بالرغم من أن المترجم العربى للتوراه تجنب لسبب أو لآخر كلمة عتقاء وفضل عليها لفظ « سمندل » وهو أحد المرادفات التى أعطاهها العرب لهذا اللفظ كما سنرى فيما بعد .

(١) وترجمتها بالإنجليزية كما يلى :

« Then I said I shall die in my nest, and as the Phoenix I shall multiply my days; of Cambridge Bible, Job, with notes introduction and Appendix by the Rev. A. B. Davidson, Cambridge University Press, 1899, Comment on Song XXIX, 18. p. 205.

(٢) يقول النبل الأفرىقى القديم « فلان يعيش ممر العنقاء » Phoinikos ete Bioun.

أما الإغريق وهم الذين يرجع لهم الفضل في نقل الأسطورة المصرية من وادى النيل وصياغتها بقالب هاليق ثم تقديمها إلى العالم المثقف فقد ترجوا اللفظ المصرى بنو إلى فوينكس phoenix وهى تعنى باليونانية « الألوان الزاهية » نظراً لما عرف عن ريش هذا الطائر العجيب من ألوان زاهية متلاثة ومن الملاحظ أن الأسم الإغريق (١) يكاد يحمل المعنى الأصلي للاسم المصرى بنو (البراق — الوهاج) أما الرومان فقد قبلوا اللفظ وافكرة الإغريقية ولم يضيفوا عليها شيئاً وكل ما فعلوه هو أن صاغوا الأسم الإغريق بالحروف اللاتينية فأصبح فينكس phoenix وهو الأسم الذى انتقل إلى معظم اللغات الأوروبية المعاصرة خاصة تلك التى تولدت من اللاتينية .

أما بالنسبة لشعوب الشرق واتى بحى العرب على رأسها فقد لقبوا هذا الطائر بأسماء مختلفة فبالأندلس العرب حيناً بالمعقاة وحيناً بالسندل (٢) ولكن المعقاة هو الأكثر شيوعاً « وقيل أنها سميت عقاة لأنه كان فى عنقها يابض كالطوق » أو ربما « لأن لها عنق طويل » (١) كما قيل أن عنقها كان مثل عنق البعير (٢) .

(١) كذلك فإن اللفظ فينكس يعنى بالآغريقية شجرة النخيل ولكن لا علاقة بين اسم الطائر وشجرة النخيل وإن كان البعض يحاولون الربط بين الطائر وبين شجرة النخيل التى تسكن فى سوريا وحيث قيل أنه كان بينى عليها عشه الشهير كذلك ذكرت الأساطير اليونانية لفظ Phoinix كاسم علم لأحد أبناء ملك بلاد اليونان الأسطورية الذى طرده أبوه مفادها إلى مملكة فتتسا Phthia حيث أصبح معلماً لآخيلس الأخين فى الحروب الطروادية بل أنه لعب دوراً فيها كذلك تذكر الأساطير رجلاً آخر بنفس الاسم وهو شقيق قدموس Cadmus الذى خرج ليبحث عن الأميرة يوروبا Europa فاستقر به المقام عندسولحل آسيا الصغرى وأنشأ دولة فينيقيا ومن أسماء الأعلام الشاعر فوينكس أحد الفقراء المجائهن الذين عاشوا فى القرن الثالث قبل الميلاد .

(٢) كذلك خلطوا بينه وبين اسم السامند أو السلامندر أو السمؤل وهو حيوان النار انظر : الدهيرى : حياة الحيوان الكبرى الجزء الثانى ص ٤٠ .

(٣) انظر أبى منظور : لسان العرب الجزء الثانى عمى (فصل العين حرف القاف)

ص ١٤٩ .

(٤) بدائم الزهور فى وقائم الدهور ص ٧٦ .

كذلك عرفت العنقاء في عدة لغات من لغات الهند ولغات الشرق الأقصى (١) ويحيى الفرس بعد العرب في اهتمامهم بأمر العنقاء إذ عرفوها باسم السيمرغ Simurgh وهو اسم مركب من كلمتين مرغ ويعنى الطائر وصى ويعنى طائر كبير لعله النسر كما لقبوه « بالشاه مرفان » أى ملك الطيور « لأنه يقبل كالسحابة الراعدة لمعظم جسمها وحفيف اجنحتها (٢) .

كذلك ربط الخيال الشعبي العربى بين العنقاء والرخ أو الرخه الذى تسمع منه فى أقاصيص ألف ليلة وليلة ذات الخلفية الثقافية والفكرية الإيرانية وقد انتقلت هذا الاسم إلى الخيال الشعبي الأوروبي عن طريق الرحالة ماركو بولو حيث سمي هذا الطائر بالرخه Rocca (٣) .

هكذا يتبين لنا أن أسطورة العنقاء قد شملت خيال كثير من الشعوب القديمة من الشرق ومن الغرب على السواء وثنىون كانوا موحدون فجاءت الأسطورة تتاجا لفكر الشرق والغرب ولقد نجح العلامة الألمانى تيرك Turk فى تتبع جذور هذه الأسطورة ولكن بإيجاز شديد .

وتتفق الأساطير فى جوهر واحد بالرغم من أن كل شعب اختار فى التفاصيل وهذا

(١) انظر ناجى القيسى : فريد الدين العطار وكتابه منطق الطير (رسالة دكتوراه قدمت لأكاديمية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٥) (غير منشور) ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) انظر ناجى القيسى المرجع السابق ص ٣١٨ .

(٣) ليس من المستبعد أن تكون الأسطورة قد توغلت إلى قلب أفريقيا السوداء عن طريق العرب لأننى أذكر أن قرأت أسطورة من غرب أفريقيا ترجمها الأديب الدكتور مامى السودانى جمال محمد أحمد ونشرتها جريدة الجمهورية فى أحد أيام عام ٦٩ تتحدث عن طائر غريب تتفق أوصافه والعنقاء أو الرخ .

الجوهر أن العنقاء طائر غريب القدم والوجه يقدم طائر من قلب الجزيرة العربية (١) عندما تكتمل دورة زمنية معينة اختلف الروائيون في احتضانها فمن قائل أن ظهور العنقاء يحىء كل خمسية علم ومن قائل أنه يحىء عند انتهاء دورة الشمس كما حسبها المصريون الذين عرفوها بدورة سوئيس Sohis ويقدرونها به ١٤٩١ سنة ومهما اختلفت الروايات فإن غالبيتها تكاد تتفق أن العنقاء يحىء كل خمسية عام.

ولقد سجل لنا هيرودوت وصفا لكل هذا الطائر يعتبر جوهر الفكرة الغربية عن هذا الطائر وذلك عندما زار مصر وشاهد رسما لهذا الطائر في معبد هليوبوليس ومن التريب أن هيرودوت كان مقتنعا بأن العنقاء كانت موجودة فعلا وليست أسطورية لأنه روى قصتها في معرض حديثه عن طيور القطر المصري ، يقول هيرودوت :

« وهناك طائر آخر مقدس يسمى بالفونيكس لم أره إلا مصورا إذ أنه لا يزور البلاد إلا فيما ندر، يزورها كل ١٠٠ عام على حد قول أهل هليوبوليس وذلك عندما يموت أبوه وإذا كان يشبه رسمه فكذا يكون حجمه وشكله : بعض ريش جناحيه ذهبي وبعضه أحمر وهو قريب الشبه جسدأ من النسر في هيئته وحجمه ويرون أنه في مهارة يدبر الأمر التالي — ولكنني لا أصدق ما يقولون: يرون أنه يغادر بلاد العرب حاملا أباه إلى معبد الشمس ليدفنه في هذا المبد وذلك بعد أن يغطيه بطبقة من الر ولكي ينقله يقوم بما يلي: يصنع أولا من الر بيضة بالقدر الذي يستطيع حمله

(1) w. H. Roscher, Aus Furbliches Iexicon der griechischer und Romischen Mythologie, 1902—1909 111, 2, col. 3450 — 3472.

بالرغم من العرب ملأوا فيها بعد إلى جبل موطنه العنقاء غربا في جزر المحيط وقيل أن موطنهمو جزيرة سومطرة أو أرض الصين شرقا .

ثم يحاول حملها فاذا انتهى من محاولته يحوف البيضة ويضع أباه فيها وبعدئذ ينطى بالمر ثانية المكان الذى جوفه من البيضة وأدخل فيه أباه بحيث أن يظل ثقل البيضة واحداً وبعد أن ينطى أباه يحمله إلى معبد الشمس فى مصر ، ذلك ما يفعله هذا الطائر حسب ادعائهم» (١).

لقد مر هيرودوت مروراً سريعاً على هذه الأسطورة ولم يذكر بالتفصيل فكرة هامة وهى الطريقة التى يموت بها العنقاء ، تقول الرويات أن العنقاء عندما تحس بدواجلها تجمع أعشاباً من طيب النبات ثم ترقد عليها وتشعل فيها النار وتظل ساكنة حتى تحترق تماماً مع العش وما تسكد النار تحبوا حتى — يتخلق من الرماد مخلوق عنقاء صغير سرعان ما ينمو ويتحول إلى عنقاء كبير يجمع رفات أبيه ويكون منها بيضة كبيرة يحملها بين مخالبه ويطير قاصداً مصر حيث معبد رب الشمس فى هليوبوليس (مدينة الشمس) وحيث يترك رفات أبيه عندئذ تقوم كهنة المعبد بالصلاة عليه وإقامة الطقوس الجنائزية وشعائر الدفن .

وهناك رواية أخرى تقول أن العنقاء السكهل يطير إلى مصر حيث يموت هناك ويتخلق من جثته الطائر الجديد الذى يترك رفات أبيه ويطير عائداً من حيث أتى ، وخلاصة القول أن طائر العنقاء كان مقرباً عن رع رب الشمس ولذا أعطى تقديساً وتبجيلاً يفوق أى تبجيل منح لأى نوع آخر من الطير أو الحيوان كما تذكر النقوش الهيروغليفية .

ويؤكد الكاتب المصرى حور أبوللون Hor apollon (٢) فى كتابه الشهير

(١) هيرودت الكتاب الثانى فقرة ٧٣ ، انظر أحمد بدوى ؛ محمد مقر خفاجه المرجع السابق ص ١٧٨ .

(1) Pouly - Wissowa, Sab Horapollon, vol VIII, col. 2313 - 2319 (by Roeder).

« رموز اللغة المهيروغليفية » Hieroglyphica وجود العنقاء في فكر المصريين فيقول « وعندما يريدون (أى المصريون) أن يرمزوا إلى نفس «عمرت طويلاً أو إلى فيضان فأنهم يرسمون طائر العنقاء وهم يرمزون به إلى النفس المعمرة لأنه أطول المخلوقات عمراً في الوجود ويرمزون به إلى الفيضان لأن طائر العنقاء رمز الشمس التي لا شيء يفوقها حجماً في الوجود (١) » ويستطرد المؤلف المصرى في الفصل الذى يليه فيقول « لكي يرمزوا الى رجل عاد الى وطنه بعد غيبة طويلة في بلاد أجنبية فأنهم يرسمون طائر العنقاء لأن هذا المخلوق اذا ما أتاه أجله بعد خمسمية عام عاد على الفور الى مصر وبعد أن يوفى حق الدنيا في مصر (أى بموت) فإنه يلقى شعائر جنائزية سرية ، وما يؤديه المصريون لسائر الحيوانات يؤدونه للعنقاء اذ يقول المصريون عنه أنه أكثر تدنوقاً للشمس من أى — طائر آخر والنيل يفيض لهم بفعل حرارة هذا الإله (أى الشمس) وقصصنا عليك أمر ذلك منذ وهلة (٢).

كما يتعرض الكاتب المصرى في مناسبة ثالثة للعنقاء في الفكر المصرى فيقول « وعندما يريدون أن يرمزوا الى دوران الدهر فأنهم يرسمون طائر العنقاء وذلك أن ولادته تجمىء نتيجة اكتمال دورة الأحوال (الدهر) وهو يولد على النحو التالى: عندما يحس طائر العنقاء بدنو أجله فإنه يسقط نفسه على الأرض — فتحدث في جسده فجوة نتيجة لهذا السقوط ومن دمه (الأليخور Ichor) الذى يتدفق من جراحه يتخلق طائر آخر وما أن ينبت لهذا الطائر جناحان حتى يلفظ أبوه أنفاسه

(1) Hor - Apollon : Hieroglyphica, Book I, chapter 34.

(2) Op. cit. Book I, chapter 35.

الأخيرة عند مطلع الشمس وبعد موت والده يقفل الابن عائداً إلى وطنه الأصلي بينما يتولى الكهنة المصريون دفن العنقاء الراحل» (١) .

ويلاحظ القارئ اختلاف رواية المؤلف المصري عن باقي الروايات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بالطريقة التي يموت بها الطائر المعجوز وفيما إذا كان يطير إلى مصر حياً أم محمولا بواسطة العنقاء الجديد ، ولكن ذلك أمر طبيعي في معالجة أسطورة خرافية تركت حقل الاختصاص لخيال الكتاب والشعراء من كل جنس وعصر وثقافة هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فإن عمل حور ابوللون — الذي لا يقل أهمية عن مؤلف موطنه مانيتون في التاريخ المصري — لم تصل إلينا إلا في شكل ترجمة يونانية ركيكة قام بها كاتب أغريقى مصرى أو مصرى متأغرق بعد قرنين على الأقل من الوقت الذى جمع فيه حور ابوللون ملاحظاته باللغة المصرية القديمة (٢) .

إذ ليس من الغريب أو المستغرب أن تستهوى أسطورة مثل هذا خيال الشعراء والكتاب والفلاسفة الاغريق والرومان فتناولوها كل واحد بالطريقة الخاصة به من أجل القصد الخاص الذى يبغيه ، فمثلا ذكر الشاعر التعليمى هسيودوس Hesiod « أن العنقاء تعيش عمر الغراب Raven تسع مرات (٣) ، كما أن أسم فوبينكس كان شائماً لدرجة أنه كان من بين أسماء الاعلام وأبطال الاغريق الأسطوريين . ومن أشهر شعراء العصر الأوغسطى الذين تناولوا هذه الأسورة الشاعر أوفيد ، إذ تناول الأسطورة ونسج منها أبياتاً رقيقة في مؤلفه الشهير « مسخ

(1) Op. cit. Book II; Chapter 47.

(٢) لقد اعتمدت في الترجمة على النص اليونانى الواردة في الكتاب التالى :

A. S. Cory, The hieroglyphes of Hilous London (1840).

(1) cf. Loeb edition of Hes,od, p 74. Frogm. no163

المخلوقات « *Metamorphoses* (١) وفي قصيدته *Amores* كما كتب الأديب الروماني ستاتيوس سيلفيوس *Statius Silvius* (٢) عن فكرة الخلود الأزل في أسطورة العنقاء الذي لا تؤثر فيه السنون أو الزمن أما الفيلسوف والأديب الروماني سينيكا فقد وجد في أسطورة العنقاء ضالته المنشودة كمثّل حي لتعليم الرواقية التي تنادي بالالتزام لنظام معين لا يمكن الخروج عليه (٣)، كما كان من الطبيعي أن يتوقف بليني الأكبر طويلاً عند العنقاء في مؤلفه الشهير عن التاريخ الطبيعي *Histotia Naturalis* ويتحدث عن الأعشاب الغريبة التي ينقيها العنقاء لبنى منها عشم خاصة ما كان منها ذي رائحة وعبير طيب يمسح الجوشدهاء كذلك تناول بليني عادات العنقاء وسلوكه وطباعه وكيفية تولد الطائر الجديد حياً من الطائر الميت (٤) أما عن المؤرخ تاكيوس فيسجل لنا ما ثبت كيف أن هذه الأسطورة ظلت حية في وجدان العالم خاصة في الأوقات التي يحتاج فيها نفسياً إلى الإسقاط السيكولوجي وخداع النفس من أجل تبرير الأمانى وأضنائت الأحلام إذ ذكر أن شائمة عمت العالم عام ٣٤ ميلادية بأن طائر العنقاء قد ظهر في مصر معلناً نهاية دهر وبداية دهر جديد وأن الشائعات تقول أن هذا الطائر ذهب إلى معبد الشمس في هليوبوليس حيث ترك جثة العنقاء القديم وطار من حيث أتى (٥) وفي نهاية العصر الوثني الروماني

(1) *Metamorphoses*, XV, 392 — 407.

وقد قام الدكتور فروت عكاشه بترجمة هذا العمل عن الانجليزية وقد راجع الترجمة الدكتور مجدى وهبة ، كذلك أنظر : *Amor II, VI, 54.*

(2) *Stat. Silv* : II, IV, 36.

(3) *Seneca, Epistulae XI ii, 1.*

(4) *Pliny, Historia Naturalis X, 3—5.*

(5) *Tocitus, Annales, VI, 28.*

نجد الشاعر كلوديانوس (١) يكرس قصيدة بأكلها للعنقاء ظلت المصدر الأول لكتاب وفلاسفة الرومان المسيحيين بعد أندثار الوثنية كذلك تناولها شعراء وكتاب كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال اوريليوس فسكتور (٢) .

وبالرغم من انتصار المسيحية على الوثنية في أوروبا إلا أن شعراء الرومان المسيحيين وقفوا مبهورين أمام التراث الثقافي الوثني خاصة أسطورة العنقاء ولعلها ذكرتهم بالحنين الروماني الديني فجعل العنقاء الأخضر بأعشابه وزهوره حيث كان يسكن العنقاء فوق قمم النخيل ذات الأكام ذكرتهم بجنان عدن التي وعد بها المؤمنون ، كما أن فكرة موت الطائفة وقياسته لاقت صدى عاطفياً محبياً في نفوس المسيحيين الأول لأنهم في ذلك يشبههم بالمسيح حين صلب ثم قام ، أضف إلى ذلك أن رهبان الأديرة النائية والنساك وجدوا قرابة في ذلك الطائر الذي يقض عمره وحيداً بلا قرينة ولا والد ولا ولد ، ورأيت ألا يفوتني أن أنقل لقارئ العربية الأول مرة الجزء الأخير من أشهر قصيدة كتبها روماني مسيحي اسمه لاكتانتوس Lactantius في مديح العنقاء سماها عن طائر العنقاء De avc P h o c n i ce وأحدى مقاطعات ولاكتانتوس هذا كان استاذاً للخطابة والبلاغة في نيكوميديا — إحدى مقاطعات آسيا الصغرى — في القرن الرابع بعد الميلاد ثم استمواه الدين المسيحي في فجره ما شهر مسيحيتيه ثم دعاه الامبراطور قسطنطين ليشرف على تعليم الامير كرسبوس crisPus لقد تغنت قصيده لاكتانتوس بجمال العنقاء وبسره الإلهي المبارك

(1) Claudianus, De Consultatu Stilichonis.

(2) Autelius Victor, De Caesalibus 4,

(3) H. J. Rose, A Hand book of later Latin Literature, Methuen, Gompany, 3rd edition p 1954. p 481.

بنزعة حارة أشبه بصلابة مسيحي متنسك ولكنها بالرغم من هذا تحمل في حشاياها عمق الثقافة اليونانية الرومانية الوثنية وسموها وإنسانيتها فجاءت مزيجاً رائعاً بين تلك الثقافة وبين الدراما العاطفية والزهد والتجرد عن الدنيا وهو ما بشر به المسيح .

وقد آثرت أن اقل النص اللاتيني الفعلي مقرونا بترجمتي العربية حتى يشاركني القارئ الاستماع بجمال القصيدة ذاتها :

تقول القصيدة «أب ضخماء ذلك الطائر الذي يجيء من بلاد العرب لا يمكن أن تقارن بأى مخلوق آخر حيوان كان أم طيراً وهو على الرغم من ذلك لا يبدو مترهلاً كما تبدو الطيور ذوات الأجسام الضخمة بسبب ثقل وزنها ، بل أنه خفيف رشيق تملأؤه مظاهر الملوك .

هكذا يبدو لاعين الناس وعندما يقدم تخرج مصر عن بكرة أيها لتستقبل المعجزة ولكنى تحى الجماهير (هذا) الطير النادر بالتهليل ، وفي الحال ينقشون على الرخام المقدس شكله ويسجلون بعنوان جديد التاريخ والحدث .

وتتجمع حوله الطير من كل جنس وليس في مخيله أى منها رهبة أو خوف وتشفق طائفة إلى العلى تحيطها جوقه ويقبها الجمع فرحة بفريضة التقوى ولكن عندما تصل إلى الأثير الأعلى ، تعود في الحال إدراجها وتكتفى بمتابعتها من امكنتها ، آه ياطر البشرى والخاتمة السعيدة ، يا من جماله يلد نفسه من نفسه وسواء كان اثى أم لا هذا ولا ذاك أو حق كليهما معا فهو طائر سعيد لأنه يعبأ بشهوة الجماع .

قالوت عنده هو الحب وشهوة الوحيدة تمكن في الموت ولذا نقبل أن يوافق
 يعننى الموت ... أنه كسبه بجيد نفسه لأنه الوالد والوريث . وهو الذي يرعى نفسه
 بنفسه والمربي الأبدى لنفسه ولكن الأمور لا تقوم لأنه كان نفسه وليست نفسه .
 لأنه يجنى بالموت الكريم حياة خالدة » .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

Magnititem terris Arabum quae gignitur ules (145)
Vix aequare potest, Seu fera seu sit avis,

Non tamen est tarda, ut Volucres quae corpore
mogno incessus pigroae per grave pondus habent,

Sed levis ac velox, regali plena decore :
talis in adfectu se tenet usque hominum. (150)

Huc venit Aegyptus tanti ad miracula visus
et raram valucem turba salutât ovans.

Protinus exsculpunt sacro in marmore formam
et titulo signat remque diemque novo.

Contrahit in coetum sese genus omne (155)
valantum, nec proctas memor est ulla nec ulla
metus.

Alituum stipata choro volat illi der altum
turdaque prosequitur munere laeta pio,

Sed postquam puri pervenit ad aetheris attras,
mox redit illa suis conditur inde locis. (160)

A fortunatae sortis finisque volucem,
cui de se nasci praestit ipse deus.

Femina vel mas haec, seu neutrum, seu sit utr-
umque, felix quae veueris foedra nulla Colit :

Mors illi venus est, Sola est in morte valuptas : (165)
ut possit nasci , appetit ante mori

Ipsa sibi proles, suus pates et suus heres,
nutrix ipsa sui, semper columna sibi

Ipsa quidem, sed non eadem quia et ipsa nec
ipsa est, aeternam vitam mortis adepta bono.

1 — of. A.M. Duff, minor Latin poets, Loeb
Classical Library, 1935. pp 647 ff.

تلك هي قصيده لاكتاتبيوس — شيشيرون المسيحية — كالأقية معاصرة (١)،
والتي أصبحت نموذجاً إحتذاءه كل كاتب استهواه هذا الموضوع فنسج على منوالها
قصائد متعددة ولقد كانت الأسطورة محل عناية خاصة من جانب الشعراء
الفنائيين (٢) Lyricist الذي تناولوها من جوانب متعددة فمنهم من كتب عن
تفريد العنقاء وعن الأناشيد التي يشدو بها عندما يقبل وعند ظهوره كلما أكتفل
ألف عام وعودته إلى أكام النخيل ذوات الطلع النضير في شوطى سوريا حيث كان
يبنى عشة الغرب الجميل وعن مأساة موته وبمئة من جديد ، في مزيج شيق من
الوثنية وتراثها والمسيحية وعناصرها جديدة بالدراسة والترجمة .

وإذا ما تركنا الغرب الأوربي وإنتقلنا إلى الشرق مهد الأسطورة نفسها وجدنا
شعوبة أيضاً تعالج الأسطورة ولكن بطريقة مختلفة وبمجيء على أرس هذه الشعوب
العرب لقد عرف عرب مقبل الإسلام العنقاء وذكروها في أمثالهم العديدة ولكن
لا نسمع عنهم أى تفسيرات لا مقولية لطائر العنقاء وربما لأن العرب شعب فقير في
صنع الخرافات والاساطير أو لأن العقيدة العربية تميل إلى التجريد المطلق « مثلاً إذا
خبرت العرب عن هلاك شيء بطلانة قالت خلقت به في الجو عنقاء مغرب » (٣)

ويقول أبو منظور لسان العرب (٤) « والعنقاء طائر ضخم ليس بالعقاب وقيل
والعنقاء المغرب كلمة لا أصل لها ، يقال أنها طائر عظيم لا ترى إلا في الدهور ثم
كثر ذلك حتى سموها الداهية عنقاء مغرباً (٥) ومغربه كقولهم .

1 — H. J. Rose, op. cit d. 481.

2 — cf A.M. Duff, op. cit pp 643w647.

(٣) الحيوان للجاحظ جزء ٧ ص ١٢٠

(٤) لسان العرب لأبى منظور الجزء الثانى عشر (فصل العين حرف القاف ص ١٤٩ .

(٥) كذلك ذكر أبو منظور في لسان العرب أن العنقاء لقب رجع من الغرب اسم شعلة
ابن عمرو والعنقاء أيضاً اسم ملك أنظر للرجم السابق .

ولولا سليمان الخليفة حلقت به من يد الحجاج عنقاء مغرب

وقيل إنها سميت عنقاء لأنه كان في عنقها بياض كالطوق وقال كراع العنقاء فيما يزعمون طائر يكون عند مغرب الشمس وقال الزجاج العنقاء المغرب طائر لم يره أحد وقيل في قوله تعالى — طيرا أبابيل هي عنقاء مغربه أبو عبيد — من أمثال العرب طارت به العنقاء والمغرب ولم يفسر .

أما الشعراء العرب فقد ذكرو العنقاء في قصائدهم على أنها طائر خرافي كقول أبي نواس في هجاء أحد الناس .

وما خبره إلا كعتقاء مغرب تصور في بسط السلوك وفي المثل (١) كذلك يصورونها بأنها طائر ضخم لا يستطيع صيدة كقول المعروى في مطلع قصيدته « سقط الزند » :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا
وبأنه طائر عقيم لا يرضع كقولهم .

مهدته العنقاء وهي عقيم رب مهد يكون فوق الهلال (٢)

والحق يقال أن الخيال العربي لم يصبح خصباً إلا في الحقل الديني حيث فتح باب الاجتهاد أمام المفسرين والباحثين في قصص الأنبياء حتى أن بعض المفسرين ذكروا اسم العنقاء في تفسير قوله تعالى «وعادا وثمود وأصحاب الرس» (٣) وفي قوله تعالى « كانت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود » (٤) ويقول أبو منظور في لسان العرب « قال ابن الطلبي كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له رمخ مصعده في السماء ميل فكان ينتابه طائر كأكظم ما يكون لها عنق طويل من أحسن الطير فيها من كل لون وكانت تقع منقضة فكانت تنقض على

(١) حياة الحيوان للجاحظ جزء ٣ .

(٢) المرجع نفسه جزء ٧ .

(٣) سورة الفرقان آية ٣٨ .

(٤) سورة قاف آية ١٢ .

الطير فتأكلها عافجت وانقضت علي صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب
بما أخذته ثم انقضت على جارية ترعرعت وضممتها إلى جناحين لها صغيرين سوى
جناحيها الكبيرين ثم طارت فشكوا ذلك إلى نبيهم حنظلة فدعا عليها فسلط الله عليه
آفة فهلكت فضربتها العرب مثلا في إشعارها ويقال ألومت به العنقاء المغرب وطارت
به العنقاء (١) .

كذلك تحدثت الأساطير (٢) الإسلامية عن العنقاء خاصة في معرض ذكرها
للنبي سليمان حيث اشتهر بتحكمه في المخلوقات وقوى الطبيعة وتسييره لها حتى قيل أنه
يفهم لغة الطير والحيوان ومن الواضح العرب اتبعوا قصص الأنبياء التراث العبراني
وأخذوا منه الكثير خاصة أن معظم أنبياء الله عبرانيين وكان من الطبيعي أن تحتل
العنقاء مكانة عالية في مجلس الطير الذي كان يرأسه النبي سليمان بل وأن يكون لها
حكاية معه رواها لنا النيسابوري الثعالبي (٣) كما رواها أيضا النويري (٤) وملخصها
تحدث العنقاء للقدر أمام سليمان حين قالت الإيمان لله ولسكن المشيئة للعباد فيضمها
سليمان أمام حكم من أحكام القدر وهي أن طفلا ولد بالمغرب وجارية بالشرق وكل
منهما ابن ملك وأنهما سيكبران ويحتمعان في أمتع الموانع وتحمل الجارية من الفتى
سفاحا وترد العنقاء مغرورة بقوتها بأنها ستمنع الفتى عن الفتاة فأشهد سليمان عليها
الطير وكفلها البومة « ومرت العنقاء وكانت في كبر الجمل عظاما ووجهها وجه
الإنسان ويدها وأصابعها (٥) كذلك فحلقت في الهواء حتى أشرفت على الدنيا
وعرفت مكان الجارية وخطفتها وحملتها حيث تسكن فوق قمة شجرة عالية تلامس

(١) أنظر لسان العرب المصنف السابق.

(٢) أنظر مثلا شرح المقامات للشوشى مطبعة بولاق ١٩٠٠ جزء ٢ ص ٤٠٦ . كذلك أنظر
دائرة المعارف الإسلامية تحت سيمرغ .

(٣) النيسابوري الثعالبي: قصص الأنبياء مكتبة الجمهورية المصرية ص ٣٢٠ .

(٤) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب الجزء الرابع عشر مطبعة دار
الكتب المصرية ١٩٤٣ ص ٨٦ — ٨٧ .

(٥) نهاية الأرب الجزء الرابع عشر ص ٩٢ .

غصونها النجوم والشجرة فوق جبل شاهق عال يتوسط جزيرة في البحر وأخذت تريبتها حتى كبرت ولكن الريح تسوق سفينة الفقى والذى كان أصبح ملكاً إلى هذه الجزيرة ويخاطب الفتاة ثم يصل إليها بطريقة غريبة تذكرنا بما ذكره هيرودوت نقلاً عن ماسمه من كهنة مصر وهى أن الأمير « بقربطن فرس من دوابه وأخرج ما فيه وجوفه وأقبره وأطينه وأدخل في جوفه وتحت إلحاح الجارية أحضرت العنقاء جثة الفرس إلى العش ونال الفقى من الفتاة وخبرت الريح سليمان بما جرى فطلب من العنقاء إحضار الجارية وتحت إلحاح الجارية مرة أخرى سمحت العنقاء لها بأن تدخل في بطن الفرس حيث يرقد الأمير وتحملها إلى مجلس سليمان وأمام الطير تنكشف الحقيقة فتدهش العنقاء وتقيه في السماء نحو المغرب حيث اختفت في بحر من بحاره وآمنت بالقدر وحلفت ألا ينظر الطير في وجهها أبداً استحياء» (١) .

كذلك استوحى عدد كبير من كتاب العرب معلوماتهم من التراث الفارسي خاصة فيما يتعلق بالعنقاء ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر الميرى (٢) وما قاله عن العنقاء حيث خلط بينه وبين السندل فحينما يذكره بأنه طائر غريب بأرض الصين يستلذ بالنار ولا يغسل جلده إلا بها — وحينما يذكره بأنه حيوان دون الثعلب لا يتأثر بالنار ولا تؤثر فيه ومرة ثالثة يقول أنه طائر بأرض الهند يبيض ويفرخ فيها ويعمل من ريشه ما يدل إذا — اتسخت ألقي بها في النار فتصبح نظيفة ويقول أنه سمع من شيخه عبد اللطيف ابن يوسف البغدادي أنه قدم للملك الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب قطعه سمندل عرض ذراع في طول ذراعين ألقى في النار فلم تؤثر فيها .

(١) المرجع السابق في نفس المكان .

(٢) حياة الحيوان الكبير الجزء الثاني ص ١٧٧ — ١٧٩ .

كذلك يروى القزويني في كتابه عجائب المخلوقات (١) « أن العنقاء أعظم الطير جثة وأكبرها خلقه تخطف القيل كما تخطف الحدأة » وذكر أنها نفيت إلى بعض جزائر المحيط تحت خط الاستواء وهي جزيرة لا يصل إليها أحد من الناس وفيها تعيش حيوانات كثيرة كلها تحت طاعة العنقاء وذكر أن العنقاء كانت تترك ما يتبقى من صيدها لبقاى الحيوانات حيث يشاهدها من موضعه العالى وهي تأكل بقاياها وذكر أنه عند طيرانه يحدث ريشه صوتا كصوت هجوم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح .

من الواضح أن الأسطورة مرت شرقا حتى وصلت إلى الهند إذ ورد اسم العنقاء في عدد من لغاتها القديمة ولكننا لا نعلم الكثير نظرا لصعوبة الاطلاع على نصوص هذه اللغات ومهما كانت فلن تبلغ الأسطورة في الهند ما بلغت في فارس الإسلامية حيث تناولوها من وجهه نظر صوفية إسلامية بمحتة وتظهرها الأساطير الإيرانية كرمز لشيء عبقري طيب أمين أو كرمز للشريـر الداهية والذي يخلص البشرية من آثامه بطل مخلص (٢) ومن يطلع على الأسطورة الإيرانية لا يجد فرقا كبيرا بينها وبين مارواه المفسرون والكتاب العرب ويقال إن أخبار العنقاء في الكتب العربية مستوحاة من فارس الإسلامية (٣) .

ومن أشهر الشعراء المسلمين المتصوفين الذين عالجوا العنقاء من زاوية صوفية بحمة الشاعر الإيراني فريد الدين العطار (١١٤١ - ١٢١٠ ميلادية) وهو واحد من

(١) الجزء الثاني ص ٢٧٩ تحت عنقاء .

(٢) انظر ناجي الفيـسى المرجع السابق ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٣) ناجي الفيـسى المرجع السابق ٣١٨ - ٣٢٠ .

أكبر ثلاثه شعراء متصوفة في تاريخ الأدب الفارسي بعد الإسلام (١) لقد تناول فريد الدين "مطار في كتاب أسماه بمنطق الطير فكرة سبق للإمام الغزالي (المتوفى عام ١١١١ ميلادية) أن عالجها في بحث أسماه «رسالة الطير» بل أن الشاعر الفارسي تأثر بها تأثيرا لا يخفى على الدارس وهذه الفكرة هي أن الطيور على اختلاف أشكالها تجتمع لتبحث عن ملك لها وتجتمع على اختيار العنقاء وتخرج وفود الطير للبحث عنها في رحلة كلها ممالك وأخيرا يصل عدد قليل إلى حضرة العنقاء ويروون قصتهم راجين منه أن يقبل قرارهم بأن يكون ماسكا عليهم فيسخر العنقاء منهم قائلا لهم بأنه ملك الطيور سواء شاءوا أم أبوا وأنهم اتبعوا أنفسهم لعمل شيء هو قائم فعلا — ويستطرد ديوان المطار فيقول إن الطيور قد حارت في العودة حتى تمنوا أن يموتوا عن آخرهم ولكن العنقاء ولا الطيور يسمح لهم بالإقامة عنده (٢) .

ويرى الدارسون لفكرة الغزالي والمطار أن اختيار العنقاء رمز لفكرة الحق (٣) الذي هو غاية الباحثين كما ترمز القصة يرجع إلى نظرة الناس إلى هذا الطائر الذي هو بعيد عن الناس فلا مكانه معروف ولا وصفه على الحقيقة معروف فهو موجود حسا وفكرا وغير موجود مادة وفي هذا يمكن منطق فلاسفة المسلمين في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وفي هذا اختلاف كبير عن فكرة متصوفة المسيحيين الأولين .

(١) أنظر المرجع السابق كذلك أنظر : د. عبد الوهاب عزام التصوف وفريد الدين المطار القاهرة ١٩٤٥ .

(٢) أنظر ناجي القيسي المرجع السابق ص ٣٠٢ — ٣٠٤ .

(٣) من الواضح أن المطار رمز للحق بالعنقاء وهو غاية الغايات كما رمز بالطيور الباحثة عن العنقاء إلى الصوفية وطلاب الفضيلة والمقصود بالقصة أن الحق موجود سواء بحث عنه العلماء أم لا والذين يبحثون عنه سوف ينتهي أمرهم إلى حفرته كما أوامهم العنقاء .

